المحاضرة السابعة

إسهامات المسلمين في الفكر الاقتصادي في العصر الوسيط (تابع)

3- الفكر الاقتصادي عند ابن خلدون (1330-1406): هو عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الخضرمي مفكر عربي من أسرة إشبيلية هاجرت إلى تونس حوالي منتصف القرن السابع الهجري، وأصل أسرته من قبيلة كندة، وجده خالد المعروف بخلدون (ومن هنا جاء إسم إبن خلدون الذي عرف به أفراد هذه الأسرة).

هو مؤرخ وعالم ورجل دولة(تولى الوزارات والقضاء)، وأكثر ما شتهر به أنه مؤسس علم الاجتماع وكتابه المقدمة، لكنه ذو اسهام غزير في القضايا الاقتصادية، حيث خصص من مقدمته الباب الخامس جميع فصوله الإثنين والثلاثين لصياغة أفكاره الإقتصادية في مجال نظرية القيمة والمسائل المتفرعة عنها وقد أسماه الباب الخامس في المعاش ووجوهه.

ومن أهم القضايا الاقتصادية التي تعرض لها:

3-1 القيمة عند ابن خلدون: لقد ذكر ابن خلدون في أكثر من موضع في مقدمته بلن العمل هو مصدر القيمة التبادلية للسلعة، حيث قال: " فلابد من الأعمال الإنسانية في كل مكسوب ومتمول". وبذلك ربط بين قيمة السلعة وقيمة العمل المبذول في صنعها ربطا طرديا، بحيث ترتفع قيمة السلعة كلما ارتفعت قيمة المجهود المبذول في إنتاجها، وتنخفض قيمتها بقلته وانخفاضه. ويبرز ذلك في قوله:" فاعلم أن ما يفيده الإنسان ويقتنيه من المتمولات إن كان من الصنائع فالمفاد المقتنى منه هو قيمة عمله...وقد يكون مع الصنائع في بعضها مثل النجارة والحياكة معهما الخشب والغزل، إلا أن العمل فيهما أكثر فقيمته أكبر". ويضيف: " وقد تكون ملاحظة العمل ظاهرة في الكثير منها فتجعل له حصة من القيمة عظمت أو صغرت. وقد تخفى ملاحظة العمل كما في أسعار الأقوات بين الناس فإن اعتبار الأعمال فيها ملاحظ في أسعار الحبوب، لكنه خفي في الأقطار التي علاج الفلح فيها ومؤونته يسيرة فلا يشعر به إلا القليل من أهل الفلح. فقد تبين أن المفادات والمكتسبات كلها أو أكثرها إنما هي قيم الأعمال الإنسانية".

لقد أوضح (ابن خلدون) بأن قيمة أي سلعة تتحدد بكمية العمل المبذول فيها وبهذا نجده قد وضع الأساس الذي بنيت عليه نظرية القيمة لمن جاء من بعده.

3-2 أنواع القيم عند (ابن خلدون): استطاع (ابن خلدون) أن يفرق بين نوعين من القيم:

- القيمة الاستعمالية: يقول (ابن خلدون): " إن الحاصل أو المقتنى إن عادت منفعته على العبد، وحصلت له ثمرته من إنفاقه في مصالحه وحاجاته سمي رزقا". ويلاحظ أن مصطلح الرزق عند (ابن خلدون) يذهب إلى ما اصطلح عليه في الأدبيات الاقتصادية بالقيمة الاستعمالية. ويوضح ابن خلدون شروط القيمة الاستعمالية في:

- الحصول الفعلي على السلعة واقتنائها؛
- حصول المنفعة من الشيء المقتنى؛
- قدرة المنفعة على إشباع حاجة وتحقيق مصلحة خاصة؛

مما سبق يتبين بأن لفظة الرزق المرادفة للقيمة الاستعمالية هو ما يحصل عليه الفرد ويخصصه لإشباع حاجاته المباشرة وتحقيق مصلحته الخاصة. مما يجعل نظرة (ابن خلدون) للقيمة الاستعمالية نظرة مستوفية.

- القيمة التبادلية: يقول (ابن خلدون): " إن الحاصل أو المقتنى إن عادت منفعته على العبد، وحصلت له ثمرته من إنفاقه في مصالحه وحاجاته سمي رزقا...وإن لم ينتفع به في شئ من مصالحه وحاجاته فلا يسمى بالنسبة إلى المالك رزقا، والمتملك منه حينئذ بسعي العبد وقدرته يسمى كسبا"

ويلاحظ أن النوع الثاني من الأشياء المقتناة التي ذكرها (ابن خلدون) في القسم الثاني من المقولة السابقة لا يكون القصد من اقتنائها هو الاستعمال الشخصي المباشر وإنما القصد منه مبادلتها بغيرها، فهي تدخل في دائرة السلع ذات قيم الاستبدال، ويمكن إيجاز شروط القيمة التبادلية عند (ابن خلدون) فيما يلي:

- الحصول الفعلي على السلعة واقتنائها؛
- ليس الغرض منها الانتفاع في مصالحة الخاصة وحاجاته؛
- الامتلاك سعي الفرد وقدرته؛

3-3 **نظرة (ابن خلدون) في أنواع العمل:** ينظر إلى العمل من زاويتين:

- من زاوية خلق القيم مباشرة أو خزنها فهو يتكلم عن العمل الظاهر والعمل المستثمر.

إن أصل القيم عند (ابن خلدون) هو العمل- كما سبق ذكره-، والعمل الذي قد يخلق قيمة بصورة مباشرة يسميه نوع يتجسد ظاهريا في المكتسبات مثل منتجات البضائع أو قد يكون العمل على شكل قيم متراكمة في منفعة أو منتوج، أي أن هذه المنفعة أو هذا المنتج تبدل فيها الأعمال الإنسانية بشكل متواصل وبفترات مختلفة، أي أنهما حصيلة عمل إنساني سابق تراكم فيه إقتناء الحيوان أو النبات أو المعدن، فيقول:(فلا بد من الأعمال الإنسانية في كل مكسوب ومتمول، لأنه إن كان عملا بنفسه مثل الصنائع فظاهر وإن كان مقتني من الحيوان والنبات والمعدن فلا بد فيه من العمل الإنساني كما تراه، وإلا لم يحصل ولم يقع به إنتفاع).

- ومن زاوية خلق القيم أصلا أو عدم خلقها يتحدث عن المعاش الطبيعي وغير الطبيعي، فالأول هو العمل المنتج بلغة الإقتصاد اليوم والثاني هو العمل غير المنتج.

لقد أعتبر الزراعة والصناعة والتجارة نشاطات إنتاجية يطابق أحدث النظريات الإقتصادية المعاصرة التي ترى أن هذه القطاعات هي القطاعات الرئيسية في إنتاج القيم الجديدة وبصورة مباشرة.أما القطاعات الخدمية كالنقل ومرافق الصناعات الأساسية فهي في الواقع نشاطات إقتصادية قد تساهم بصورة غير مباشرة في إنتاج القيم. أما جهاز الدولة ونشاط العاملين فيه فلا يدخل ضمن الأعمال المنتجة للقيم.

3-4 الأسعار عند (ابن خلدون): بالرغم من أن القيمة والأسعار تعتبران وجهان لعملة واحدة، إلا أن هناك بعض التفرقة من حيث عمل كل منهما. فالسعر هو الأداة التي تستخدم في البيع والشراء أو ما يعبر عنه بالتبادل، أي أن الأسعار هي وسيلة للتعبير عن قيمة السلع والبضائع عند تداولها وقد اعتبر ابن خلدون السعر على أنه التعبير النقدي عن قيمة السلعة.

وقد لاحظ (ابن خلدون) في المدن العديد التي عاش فيها الدور الكبير لعرض السلعة وطلبها ومدى تأثيره على حركية الأسعار هبوطا وصعودا. ويمكن القول أن (ابن خلدون) في الفترة التي عاش فيها (القرن الرابع عشر) والتي تعتبر بعيدة عن تطور علم الاقتصاد في المدارس الاقتصادية الأوروبية قد توصل إلى معرفة قانون العرض والطلب، واستطاع تفسير حركة الأسعار عن طريقه، حيث يصرح بأن الأسعار ترتفع عندما يزيد الطلب، وتنخفض عندما يقل ذلك، ويبرز ابن خلدون صحة هذه الفرضية من خلال تناوله لأسعار السلع سواء كانت ضرورية أو كمالية بقوله: "فتفضل الأقوات (السلع الضرورية) عند أهل مصر.. فترخص أسعارها في الغالب". وتوضح هذه العبارة بان السلع الضرورية غالبا ما تكون أسعارها منخفضة لان غالبية الناس تعمل على إنتاجها لضرورتها، لذلك توجد بشكل أكبر من المطلوب وعندها يزداد عرضها فتنخفض أسعارها.

أما بالنسبة للسلع الكمالية فيرجع في الغالب اقتنائها إلى فئة الاغنياء والمترفين، فهم من يشكل جانب الطالب دون غيرهم عند بن خلدون، ولأن السلع الكمالية ذات خصوصيات جمالية وفنية فإن محترفيها عادة ما يكونون من أصحاب الحرف الموهوبين وهم قلة، وهذا مايجعل عرض هذه السلع قليلا، ولذلك يتجه السعر إلى الارتفاع، نتيجة لقلة عرضها واستعداد الأغنياء والمترفين لدفع السعر المرتفع فيها. ويقول ابن خلدون: "واما سائر المرافق من الادم والفواكه وما إليها فغنها لا تعمم بها البلوى(قلة طالبيها)، ولا يستغرق اتخاذها أعمال أهل المصر اجمعين، ولا الكثير منهم على حين، ثم إن المصدرإذا كان متسحرا موفور العمران كثير حاجات الترف، توفرت حينئذ الدواعي على طلب تلك المرافق والاستكثار منها، كل بحسب حاله، فيقصر الموجود منها على الحاجات قصورا بالغا(زيادة الطلب مع بقاء العرض ثابتا) ويبذل اهل الرفاه والترف أثمانها بإسراف لحلجاتهم إليها أكثر فيقع فيها الغلاء".

ويتبين من هذا التحليل ان السلع الكمالية تتجه اسعارها إلى الارتفاع وذلك:

- كثرة الحاجة أي زيادة الطلب نتيجة التقدم الحضاري؛
- اعتزاز أهل الاعمال بخدمتهم وإنتاجهم على قلتهم مما جعل العرض محددا؛
- استعداد الاغنياء والمترفين لبذل مقابل كبير للحصول عليها افتخارا؛

نلاحظ أن ابن خلدون استعمل لفظ (في الغالب) مما يدل ‘لى عدم ثبات ودوام هذه الاسعار، وان هناك فترات وعوامل تؤدي إلى تغيرها. أي ان أسعار كل السلع اموجودة في الاسواق بغرض التبادل تخضع إلى التغيرات سواء بالارتفاع او الانخفاض، وذلك تبعا للتقلبات السائدة في اسواق هذه السلع، وهذه التقلبات في ظروف الاسواق عادة ما تتبع حالة العرض والطلب فيرى ابن خلدون أنه عندما يكثر الطلب على سلعة ما ويكون المعروض منها ثابتا يؤدي بميل سعرها الى الارتفاع، وعندما نكون الكميات المعروضة من السلع كبيرة والطلب عليها يكون ثابتا فإن الاسعار تميل الى الانخفاض، اما عنما يكون هنا ظروف في الاسواق بحيث يكون هناك تغير في كل من العرض والطالب فإن الاسعار تتغير تبعا لذلك.

من خلال هذا الطرح يتبين لكل باحث موضوعي ان ابن خلدون تعرف على هذه النظرية بشكل علمي مما يجعله سبقا علميا وتاريخيا في هذا المجال.

3-5 النقود عند (ابن خلدون): اقد شمل تحليل ابن خلدون للنقود على الوظائف التالية:

- الوظيفة الأولى للنقود ان تكون مقياسا للقيمة. حسب ماورد في قوله: " إن الله تعالى خلق الحجرين المعدنين من الذهب والفضة قيمة لكل متمول"

- الوظيفة الثانية ام النقود أداة للادخار (مخزن للقيمة): لقوله: "وهما الذخيرة" واوضح بانه إذا كان المقصود بها قابليتها للادخار والاحتفاظ بها لفترات زمنية بهدف اجراء المعاملات فلا شك أن النقود بطبيعتها أكثر قابلية لذلك، اما إذا كان المقصود أنها أداة للاكتناز وتحويل القيم العينية إليها لمجرد الاحتفاظ بها والابتعاد عن تشغيلها وتوظيفها فأن هذا مرفوض شرعا.

- الوظيفة الثالثة تعتبر النقود وسيلة للتبادل والاقتناء، يقول ابن خلدون: " هما القنية لاهل العالم في الغالب" وقال: "هما اصل المكاسب والقنية والذخيرة".

3-6 الثروة عند ابن خلدون: فرق ابن خلدون بين النقود والثروة في عصره بما يطابق التفرقة المعاصرة في علم الاقتصاد الحديث، إذ اوضح ان ثروة البلاد لا تقاس بكمية النقود التي تملكها كل بلد، بل تتحدد بالقيمة الحقيقية للانتاج. وان كثرة الانتاج بكثرة الأعمال الانسانية، بمعنى أن الاعمال الانسانية هي المصدر

الحقيقي للثروة. ويقول في هذا: "فاعلم ان الاموال من الذهب والفضة والجواهر والامتعة إنما هي معادن ومكاسب مثل الحديد والنحاس والرصاص وسائر العقارات والمعادن والعمران يظهرها بالاعمال الانسانية ويزيد فيها او ينقصها". ويقول ايضا:" إن عامة الناس قد يسمعون بان أقطار المشرق مثل مصر والشام بلغ حدا كبيرا من الغنى والترف الاقتصادي ويحسبون ان ذلك لزيادة اموالهم او لأن المعادن الذهبية والفضية اكثر بأرضهم، أو لان ذهب الاقدمين من الامم استاثروا به دون غيرهم، وليس كذلك لان السبب الحقيقي هو كثرة العمران واختصاصه بأرض المشرق واقطاره، وكثرة العمران تفيد كثرة الكسب بكثرة الاعمال"

بتحليل ما سبق يتبين ان ابن خلدون وضح اهمية الانتاج في تكوين ثروة البلاد ضاربا مثلا بثروة مصر والشام بانها تكمن في الانتاج وليس في توافر المعادن الذهبية والفضية بارض هذه البلاد، وان ثروتها الحقيقية ناتجة عن تطور وازدهار النشاط الاقتصادي والانتاج وكثرة الاعمال الانسانية. وبذلك يكون قد سبق أدم سميث في الاقرار بان ثروة الامم انما اساسها قيم الاعمال الانسانية.

3-7 تقسيم العمل عند ابن خلدون: اعتقد ارسطو وافلاطون أن اختلاف المواهب البشرية الفطرية سبب لتقسيم العمل، فكل فرد مهيأ لعمل معين او لحرفة معينة بطبيعته ولا يصح ان يزاول غيرها. بينما ركز ابن خلدون على المواهب المكتسبة للافراد ورأى ان الصناعة لابد لها من تعليم وتدريب فيقول:" اعلم ان الصناعة هي ملكة في امر عملي فكري، بكونه عمليا هو جسماني محسوس، والاحوال الجسمانية المحسوسة نقلها بالمباشرة أوعب لها واكمل، لان المباشرة في الاعمال الجسمانية المحسوسة اتم فائدة، والملكة صفة راسخة تحصل عن استعمال ذلك الفعل وتكرره مرة بعد مرة أخرى حتى ترسخ صورته. وعلى قدر جودة التعليم وملكة المعلم يكون حذق المتعلم في الصناعة وحصول ملكته".

كما أوضح ابن خلدون بان الانسان إذا تكونت له ملكة في صناعة معينة فقل أن يجيد بعدها او معها ملكة أخرى." ومثال ذلك الخياط إذا اجاد ملكة الخياطة واحكمها، ورسخت في نفسه، فلا يجيد من بعدها ملكة النجارة او البناء، إلا ان تكون الاولى لم تستحكم بعد ولم ترسخ صبغتها. والسبب في ذلك ان الملكات صفات للنفس والوان، فلا تزدحم دفعة واحدة، ومن كان على الفطرة كان اسهل لقبول الملكات واحسن استعدادا لحصولها، فغذا تلونت النفس بالملكة الاخرى وخرجت عن الفطرة ضعف فيها الاستعداد بالون الحاص من هذه الملكة، فكان قبولها للملكة الاخرى اضعف. وهذا بيّن يشهد له الوجود".

3-8 المذهب الحر: طالب ابن خلدون بابعاد الدولة عن الحياة الاقتصادية على حساب أفراد الامة مؤكدا بذلك ريادته لمذهب الاقتصاد الحر قبل ظهور الطبيعيين في فرنسا، وآدم سميث في انجلترا بعدة قرون، غذ دعا إلى المنافسة الحرة الشريفة في مجال الاقتصاد والتجارة وضرورة ابتعاد السلطة السياسية عن المشاركة في أي نوع من أنواع النشاط الاقتصادي.